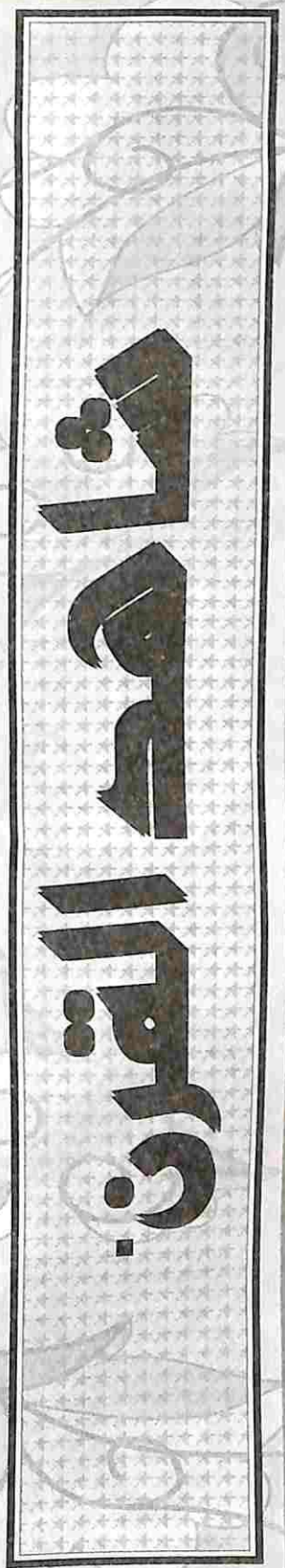

حُمَّ الرحيلُ وما رأيتك تشفق ... وأجبْتَه والوجه طلق مشرقُ
فعجبْتُ يا شيخي وجئتُ مسائلا ... فيمَ البشاشة والرضا والرونقُ
كيف ابتسمْتَ وكان بشرك كالسنا ... ولمن هششْتَ ومن لقيتَ ومن لقوا؟!
والعهدُ أن الموت يرهبه الفتى ... ويخافه حتى التقي الأصدقُ
فأجبْتَ إني للرحيم مسافرٌ ... فعلامَ أشكو يا بُنَيَّ وأقلقُ
والله رحمته ملاذي مشرعاً ... أبوابُه وبي الرجاء المطلقُ
أني ظفرتُ بها فماتت خشيتي ... قبلي فقل أنّى أخاف وأُشْفِقُ
سبعين عاماً عشْتَ فارسَ حلبةٍ ... لك في المحافل شدةٌ وترفقُ
أبداً بيانُك كالحسام مظفرٍ ... وثباتك المعهود عزمٌ يبرقُ
واللين أنتَ وأنتَ فيه نضارةٌ ... فإذا عدا العادي فأنت المِحْنَقُ
ويعينُك الإيمانُ وهو حميةٌ ... ويعينُك العقل الذكي الأسبقُ
ويعينُك العلمُ الغزيرُ وحبه ... ويعينُك القولُ الجميلُ الأليقُ
ويعينُك الحبُ الذي قد نلْتَه ... بين الأنام فإنْ رأوك تحلقوا
مطروفةٌ أبصارهُم مأخوذةٌ ... فيهم هُيامُ الطفلِ حين يحدقُ
وبهم إلى «الرائي» استباقُ ذوي هوًى ... إن قيل جاء الألمعي المُفلقُ
عقلٌ يجوبُ المعضلاتِ فيجتلي ... أغوارَها وخبيئها ويدقّقُ
ويزفُّها للناس تزهرُ كالضحى ... والسامعون تشوفٌ وتشوقُ
وعلى الوجوه إذا رأوك مودةٌ ... وعلى القلوب بشاشةٌ وتعلقُ
وعلى العقولِ وقد أسرتَ ذكيَّها ... ألق الهداية وهو ضافٍ مورقُ
أما خيالُك فهو حيٌ مبدعٌ ... يعلو ويستبقُ النجومَ فيسبقُ
كنتَ البيانَ سريه وجليه ... يُتْلى فيطربُ أو يقالُ فيعشقُ
تبكي الفصاحةُ بعده أمجادَها ... وتظل من حزنٍ شجاها تطرقُ
وتقولُ هلْ من فارسٍ من بعده ... يهبُ الروائعَ كالسنا ويحلقُ
أم أن أغربة البيان وبومه ... خلت الديارُ لها فراحتْ تنعقُ
يفني الزمانُ مدائناً وقياصراً ... ويزولُ مثرٍ في الحياة ومملقُ
وعطاءُ مثلكَ دائمٌ متجددٌ ... يهفو إليه مغربٌ ومشرقُ
نضرٌ يجددُ كل حينٍ حسنَه ... فجمالُه غضٌ قشيبٌ مونقُ
كنزٌ يزيدُ إذا حبا قصّادَه ... ما يشتهون ولا يضنُّ ويفرقُ
يربو على الإنفاقِ وهو حبيبُه ... وإذا حبا فهو الجوادُ المغدقُ
ويظلُّ يحلو فهو بهجة مجتلٍ ... والحسن فيه نضارة تترقرقُ
كالروضِ باكرَه الحيا فإذا به ... ورد ونسرين يفوح وزنبقُ
وعنادلٌ وبلابلٌ محبورةٌ ... نشوى تزغردُ فرحةً وتصفقُ

أما الكنوزُ المقفلات فإنها ... عبء لأهليها ثقيلٌ مرهقُ
ولقد تبددها سفاهة وارث ... يعدو عليها أو يضل ويفسقُ
والمالُ سيدُ من يعيشُ كأنه ... عبدٌ له فهو الأسيرُ الموثقُ
والمالُ عبدٌ عند آخرَ لا يني ... عن بذله في الحق وهو مُرهَقُ
فاهنأ بكنزِكَ يا علي فإنه ... أغلى الكنوزِ الباقياتِ وأسمقُ
المسلمون عشيرةٌ لك كلهم ... إن يحزنوا أو يفرحوا أو يقلقوا
تأسى لهم وتذود عن حرماتهم ... وتكاد من آلامهم تتمزقُ
فإذا انجلتْ عنهم وعنك همومهم ... ضحكتْ بوجهك بسمةٌ تتألقُ
واذا صنعتَ الفضلَ لم تطلبْ به ... إلا الإله فأنتَ راضٍ مطرقُ
أما الدعاةُ فأنت فيهم والدٌ ... يحنو ويصلحُ بينهم ويوفقُ
واذا عكفت على الكتابِ فآيهُ ... تُجلى لديك فليسَ فيها مغلقُ
واذا خلوتَ بربك الملكِ الذي ... يهبُ الحياةَ كما يشاءُ ويرزقُ
راعتْكَ قدرتُه فقلبُكَ واجفٌ ... من روعةٍ خشعتْ ودمعكَ مهرقُ
أقدارُه في الكونِ وهْيَ طليقةٌ ... هذا يموتُ بها وهذا يُخلَقُ
غشيتْكَ منها رِعْدةٌ وضراعةٌ ... فإذا بكَ الصمتُ العميقُ المطبقُ
لا العقلُ يقتحمُ المجالَ كعهده ... حراً وقد سكتَ اللسانُ الأذلقُ
ولربما غمرتْ فؤادَكَ فرحةٌ ... من جودِه فإذا به متشوقُ
واذا به يسري إلى ملكوته ... ويطيرُ في أجوازه ويحلقُ
ويقولُ يا بشرى فقد نلتُ الرضا ... من خالقي وهو الجوادُ المُغدقُ
فأنا السعيدُ إذنْ وغيري في الشقا ... وأنا الغني إذنْ وغيري المملقُ
ومضيتَ حينَ مضيتَ كلَّ ثنيةٍ ... في الأرضِ ودتْ أنها لكَ نُمْرُقُ
لكنْ ظفرتَ بمكةٍ ولقد رجتْ ... أن وسدتْكَ مع المحبةِ جلقُ
يا طالما غنيتَها وعشقتَها ... ودمشقُ حسنٌ عندَ مثلكَ يعشقُ
وحباكَ ربُّكَ عن دمشقَ مكةً ... وهي الأجلُّ جلالةً والأعرقُ
وسكنتَها حياً وميتاً بوركتْ ... سكناً تظلُّ له النفوسُ تشوقُ
وسكنتَ جارَ المروتينِ وزمزمٍ ... وحراءُ جارُكَ وهو هدْيٌ يُعبقُ
والكعبةُ الزهراءُ منكَ قريبةٌ ... وحفيةٌ فيها السنا والرونقُ
يا طيبَ حظِّكَ بالجوارِ وأهلِه ... لما أتوكَ بشائراً تتسابقُ
نمْ حيثُ أنتَ لكَ الملائكُ مؤنسٌ ... في روضةٍ بنعيمها تتأنقُ
كرمُ الإلهِ يزيدُ من إمدادها ... فيزينُها من كلِّ حسنٍ رونقُ
لا تأسَ قطُّ على الحياةِ تركتَها ... ورحلتَ عنها فهْيَ سجنٌ ضيقُ

شعر د. حيدر الغدير
السعودية

* صحيفة الشرق الأوسط ١٤٢٠/٣/١٨هـ الموافق ١٩٩٩/٧/٢م